

قراءة في كتاب: الحملة الصليبية الأولى

تأليف: ستيفن رونسيمان

الناشر: مطبوعات جامعة كامبردج ٢٠٠٥

الصفحات: ٢٠٨ صفحات من القطع المتوسط

لم ينته الجدل في الغرب حول الدوافع والأسباب التي أدت إلى الحملات الصليبية. فالآثار الثقافية والفكرية والسياسية لهذه الحملات لا تنفك تلقي بآثارها على الواقع الراهن لعلاقة الشرق العربي الإسلامي بالغرب المسيحي.

«الحملة الصليبية الأولى» كتاب المؤرخ البريطاني ستيفن رونسيمان. يتناول هذه الإشكالية التاريخية من خلال أول حملة صليبية والتي أسست لثمانية حملات متتالية. وبحسب المؤلف الذي يقدم لفكرته بالقول: إن الحملات الصليبية هي عبارة عن حملات عسكرية نظمها الكنيسة الكاثوليكية بحجة تخليص قبر المسيح والأراضي المقدسة من أيدي المسلمين. وتعود فكرتها إلى القرن التاسع الميلادي عندما فكر الفاتيكان في مساعدة مسيحيي الشرق المضطهدين من قبل المسلمين بحسب زعمهم. وقد ابتدأت الحروب الصليبية عام ١٠٩٦م، أي في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي واستمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر عام ١٢٩١م. وهذه الحرب التي جرت بين الصليبيين والمسلمين تشكل إحدى الصفحات الكبرى في تاريخ البشرية. ولا تزال آثارها راسخة في الوعي الجماعي

لكلا الطرفين حتى الآن وإن كانت قد خفت في أوروبا بسبب العلمنة. وفي البداية، زهبت جماهير حاشدة من المسيحيين إلى الأراضي المقدسة في فلسطين ولكن من دون سلاح، وقد تعرضت للمجازر. وعندئذ نظمت فرق الخيالة الأوروبية حملة عسكرية مسلحة استطاعت أن تستولي على القدس وفلسطين. ولكن ما إن استقرت فيها حتى هجم المسلمون عليهم لاسترداد ما فقدوه. وعندئذ أرسلت البابوية الرومانية إليهم أعداداً متزايدة لدعمهم ومساندتهم. ثم شيئاً فشيئاً راح المسلمون والمسيحيون يتعايشون على الأرض نفسها، وهذا ما أتاح لهم أن يتعارفوا على بعضهم البعض بشكل أفضل.

غير أن ما يشير إليه المؤلف هو أن طرد الصليبيين من الأراضي المقدسة لا يعني بالطبع أن روح الحروب الصليبية قد ماتت بعد فقدان الأراضي المقدسة واسترجاع صلاح الدين الأيوبي لها من أيديهم. فالواقع أن الكنيسة البابوية الرومانية واصلت معركتها بعدئذ ضد الأتراك الذين حاولوا الهيمنة على أوروبا، بل ووصلت جحافلهم إلى أبواب فيينا. وإلى ذلك واصلت حملاتها وحاربت تيمورلنك والمغول. وحاربت أيضاً الوثنيين في بلدان البaltic. وحتى داخل حدود أوروبا المسيحية، حاربت الزنادقة والمرتدين عن المسيحية، وبالتالي الحروب الصليبية ظلت مشتعلة على مدار القرون. والهدف المعلن

انطلاق الحملة بـ ١٥ آب / أغسطس من عام ١٠٩٦م.

ولكن الحملات الرسمية المنظمة لم تبدئ إلا بعدئذ. وقد انطلقت أربعة جيوش دفعة واحدة. الأول من شمال فرنسا، والثاني من جنوب فرنسا، والثالث من جنوب إيطاليا، والرابع من فرنسا الوسطى؛ وكلها كانت بقيادة النبلاء الإقطاعيين الكبار.

وقد وصلت هذه الجيوش جميعها عن طرق مختلفة إلى منطقة بيزنطية وآسيا الصغرى. واستطاعت أن تحقق عدة انتصارات على الجيش التركي وأن تستولي على عدة مدن كان قد أخذها من البيزنطيين، منها: أنطاكيا (١٠٩٨). وفي عام ١٠٩٩، استولى الصليبيون على القدس بعد أن هجموا على الجيش المصري.

ثم تشكلت جيوش صليبية أخرى لدعم الأولى؛ وكان أهمها تلك التي تشكلت في ألمانيا وسواها من المناطق. وقد نزلت على مدار نهر الدانوب حتى وصلت إلى القسطنطينية، ولكنها سحقت أثناء عبورها لمنطقة آسيا الوسطى من قبل الجيش التركي. واستطاع بعض عناصرها فقط الوصول إلى سوريا. غير أن الحملات الصليبية التي جاءت عن طريق البحر من جنوة وفينيسيا وسواهما استطاعت أن تصل إلى فلسطين من دون مشكلة، وقد ساعدت الصليبيين الأوائل على احتلال المدن الشاطئية لفلسطين.

منها الدفاع عن عقيدة الكنيسة البابوية الرومانية ونشر هذه العقيدة في كل أنحاء العالم ومحاربة كل ما عداها. والواقع أنها كانت تهدف إلى إخضاع العالم إلى الحكومة الثيوقراطية للبابا والكنيسة: أي الحكومة التي يمسك رجال الدين بمقاليد الأمور فيها. ولذلك فإن عصر التنوير ثار على الحروب الصليبية واعتبرها دلالة على التعصب وظلامية القرون الوسطى.

يلاحظ المؤلف أن اللحظة التاريخية للحملات الصليبية، ولا سيما الأولى منها، ابتدأت بناء على النداء الذي وجهه البابا أوربان الثاني من فرنسا إلى عموم المسيحيين الأوروبيين. وقد استعاد نداءه المبشرون العديدون وكبار رجال الدين في ذلك الزمان. وكان من أشهرهم بطرس الزاهد أو المنتسك الذي يقال بأنه لعب دوراً حاسماً في اندلاع الحروب الصليبية. فهو الذي كشف للبابا عن آلام مسيحيي الشرق وحجم الاضطهاد الذي يتعرضون له بحسب المزاعم الرأثة. وقد تراقق ذلك مع حملات تبليغية وتحريضية ضد قادة المسلمين واتهامهم باضطهاد المسيحيين، وانتشرت شائعات في كل أنحاء أوروبا المسيحية تقول بأن الخليفة الفاطمي في مصر، أي الحاكم بأمر الله، قد دنس الأماكن المقدسة للمسيحيين في القدس. وهو ما زاد من حماسة الأوروبيين ورغبتهم في المشاركة في أول حرب صليبية على المنطقة. وقد حدد البابا تاريخ

ثم يفرد المؤلف الفصول التالية للكلام عن الحملة الصليبية الثانية التي كانت تهدف، بحسب رأيه، إلى إسقاط «الرها» من أيدي المسلمين سنة ١١٤٤م، مضيفاً بأن ذلك ما دفع البابا يوجين الثالث إلى إعلان الحروب الصليبية كواجب مقدس على كل مسيحي في العام ١١٤٦م وقد ساهم القديس برنارد في التبشير للحروب الصليبية ودعا إليها بكل حماسة في خطبه ومواعظه الدينية، وهو الذي كان له كما هو معروف، تأثير كبير على عقول الناس آنذاك بسبب مكانته الدينية العالمية في أوروبا المسيحية .

ولكن هذه الحملة فشلت في نهاية المطاف؛ وكان لفشلها انعكاسات سلبية على معنويات الصليبيين . وبدءاً من العام ١١٦٥م، أصبح واضحاً أنه إذا لم تصل إمدادات جديدة فإن الصليبيين المتواجدين في فلسطين لن يستطيعوا الصمود طويلاً أمام ضغوط الدولة الإسلامية التي تشكلت في سوريا، والتي امتدت لكي تشمل مصر أيضاً . وعندئذ، أطلق البابا ألكسندر الثالث نداءً من أجل حملات صليبية جديدة، وهذا ما فعله الباباوات اللاحقون أيضاً، ولكن نداءاتهم لم تحظ إلا بنجاح محدود وذلك على عكس ما حصل أثناء الحملات الصليبية الأولى .

ولكن عندما نجح صلاح الدين الأيوبي في سحق جيش الصليبيين في حطين واسترجاع القدس، قامت قيامة العالم المسيحي في أوروبا، وهذا ما ساهم في

تشكيل حملات صليبية جديدة وضخمة . وعندئذ، تشكلت الحملة الصليبية الثالثة، وكانت ضخمة العدد . فقد ساهم فيها ملوك فرنسا وإنجلترا وإمبراطور ألمانيا . واستطاع ريتشارد قلب الأسد أن يفرض على صلاح الدين معاهدة لحماية الصليبيين الموجودين في سوريا . واستولى على عدة مدن في فلسطين، ولكنه لم يتجرأ على مهاجمة القدس خوفاً من رد فعل صلاح الدين وجيشه القوي . ولكن الأمور لم تنته عند هذا الحد، فقد حصلت بعدئذ عدة حملات صليبية حتى وصل عددها إلى سبع أو ثمان . ونلاحظ بأن المؤلف يتوقف مطولاً عند المعنى الديني لهذه الحملات، وعند البواعث السياسية والاقتصادية، وعند كيفية تشكيل الحملات عسكرياً، إلخ .

ومهما يكن من أمر، لا يمكن فهم العلاقات بين أوروبا المسيحية والعالم العربي - الإسلامي إن لم نأخذ هذه الحملات الصليبية بعين الاعتبار . فصحيح أنها انتهت منذ زمن طويل، ولكن ألا يمكن القول بأنها استمرت بأشكال أخرى حتى اليوم؟

لم يشأ المؤرخ رونسيمان أن يدع كتابه في مساحة مفتوحة من الظن، فهو سعى ولو عن طريق الإيحاء، إلى الإشارة إلى أن ما يجري اليوم من صراعات وحروب بين الغرب والبلاد الإسلامية، إنما يشكل امتداداً لا شعورياً للتاريخ الذي أطلقتته الحروب الصليبية منذ بضعة قرون .